مجردة، تقوم **بتنظيم** هذه الملاحظات، مع الإشارة إلى أنه لا أهمية لهذه الملاحظات لو لم تكن تشتمل على عبارات تتعلق بحقائق عينية **محسوسة** CONCRETE. ولا يقف"هيوم" عند هذا الحد، بل يذهب إلى أن الإضافة التي يقدمها الذهن إلى المعرفة هي بطبيعتها فارغة[1].

يشير "هيوم" في تقويضه للمذهب العقلي-الذي يؤكد على فطرية الأفكار وقبليتها حينما يتحدث عن دور الذهن ودور التجربة-، إلى أن التجربة هي وحدها التي تكشف لنا أن ثمة نزعة في الذهن تجعله ينبسط على الموضوعات الخارجية، ويخلع عليها كل الانطباعات الباطنية، التي تحدث في الوقت ذاته الذي تنكشف فيه هذه الموضوعات للحواس[2].

ومن هنا يؤكد"هيوم" على فكرة **الانطباع الحسي** كونه المعيار الوحيد للكشف عن صدق أية فكرة، ويؤكد أيضا على فكرة أن جلّ المعارف إنما تستمد في جوهرها من التجربة الحسية، والانطباعات التي نحصل عليها من العالم الخارجي إنما هي تصور يعبر عن علاقة بين **حوادث**[3].

خلاصة:

إن المتأمل للأفكار والتصورات التي تشكّل المذهب الفلسفي التجريبي، يجد تشابهًا مع المذهب العقلي، من حيث اقرارهما بالمعرفة **اليقينية، المطلقة، الصادقة، المكتملة، والنهائية**، وإن كان المذهب العقلي يعطي للعقل أسبقية على التجربة، فإن الناظم الذي يربط بين فلاسفة المذهب التجريبي هو كونهم

([1]). هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ص٧٩-٨٠.

([2]). محمد فتحي الشنيطي: فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، مكتبة القاهرة الحديثة، ط٢، مصر، ١٩٥٧، ص١٠١.

([3]). ماهر عبد القادر محمد علي: فلسفة العلوم، المنطق الاستقرائي، ص١١٨.

أولوا العناية البالغة للتجربة وجعلوها معيارا للحقيقة، ومصدراً نستمد منه معارفنا، وهي مقياس أفكارنا، لقد شكّلت التجربة (الواقع) النبع الذي نستلهم منه مختلف معارفنا، والمرجع الذي نعود إليه في معرفة حقيقة وصدق أفكارنا، وجعلت الذهن يسير تبعا لما تُمليه التجربة، وما يمدُه به العالم الخارجي، إنهم جعلوا الذهن مُستقْبلاً، وكأنه آلة مُصوّرة، تستقبل جملة الصور التي تنقلها له الحواس، وبالتالي وضعته موضع التلقي، إنهم- بتعبير أدق- وضعوا العقل موضع السلبية وحصروا مجال تدخله في تلك الوظيفة المحدودة، وهي عملية التنظيم والتنسيق بين مختلف الصور و الإدراكات الحسية التي يتلقاها من العالم الخارجي.

هذا ما يميّز المذهب التجريبي عن المذهب العقلي، أما عن ذلك التشابه الذي أشرنا إليه أعلاه، فهو إقرار فلاسفة المذهب التجريبي بما أقرّ به فلاسفة المذهب العقلي المتمثل فيما يلي:

-إيمانهم بفكرة **اليقين** في المعرفة.

-إيمانهم **بالحقيقة الثابتة**.

-إيمانهم **بنهائية** ما يتوصل إليه الفيلسوف، والتسليم بصدق معارفه.

إن هذا كله، يشكّل نسقا فلسفيا مغلقًا غير قابل للانفتاح، مؤمنًا بالنهائية، غير عابئ بالاستمرار، مسلّمًا بالحقيقة الثابتة، غير معترف بتغيرها عبر الزمن، مصدقا بيقين المعرفة، رغم ما يشوبها من شك وغموض ولبس، وفي كثير من الأحيان ما يكشفه الواقع أو العقل من خطئها وقصورها.

هذا ما جعل باشلار يقرأ كلا المذهبين، قراءة نقدية واعية، رافضا لليقين، والمطلق، والنهائية، والاكتمال، داعيا إلى المعرفة المفتوحة، النسبية، المتغيرة، الجدلية، المستمرة.

❁❁❁❁❁❁